(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[(١)]

[البسملة] اختلف العلماء في البسملة؛ هل هي آية من كل سورة افتُتِحت بها؟ أو هي آية مستقلة أُنزلت للفصل بها بين السور وللتبرُّك بالابتداء بها[(٢)]؟

والمختار: القول الثاني.

واتَّفقوا على أنَّها جزء آية من سورة النمل، وعلى تركها في أول سورة براءة؛ لأنَّها جُعِلَت هي والأنفال كسورة واحدة.

والباء في ((بِسْمِ)) للاستعانة، وهي متعلقة بمحذوف، قدَّره بعضهم فعلًا، وقدَّره بعضهم اسمًا، والقولان متقاربان، وبكلٍّ ورد في القرآن؛ قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]. وقال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١].

ويحسن جعل المقدَّر متأخرًا؛ ((لأنَّ الاسم أحق بالتقديم، ولأنَّ تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركًا به، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا له أو تمييزًا)).

واختُلِفَ في أصل اشتقاقه، فقيل: إنَّه من السِّمة؛ بمعنى: العلامة. وقيل: من السمو. وهو المختار.

وهمزته همزة وصل.

---

(١) زيادة ليست في الأصل.

(٢) حرَّر هذه المسألة الشيخ أحمد شاكر تحريرًا مطولًا في ((الجامع الصحيح)) للترمذي (٢/١٦-٢٥)؛ خلص فيه إلى أن البسملة آية من كل سورة سوى براءة.

وليس الاسم نفس المسمَّى؛ كما زعم بعضهم، فإنَّ الاسم هو اللفظ الدَّالُّ، والمسمَّى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم.

وليس هو كذلك نفس التسمية؛ فإنَّها فعل المسمِّي؛ يقال: سميتُ ولدي محمدًا؛ مثلًا.

وقول بعضهم: إنَّ لفظ الاسم هنا مُقْحَمٌ؛ لأنَّ الاستعانة إنَّما تكون بالله عزَّ وجلَّ لا باسمه. ليس بشيء؛ لأنَّ المراد ذكر الاسم الكريم باللسان؛ كما في قوله:﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١].

أي: سبِّحْهُ ناطقًا باسم ربك، متكلِّمًا به، فالمراد التبرُّك بالابتداء بذكر اسمه تعالى.

واسم الجلالة؛ قيل: إنَّه اسم جامدٌ غير مشتقٍّ؛ لأنَّ الاشتقاق يستلزم مادة يُشْتَقُّ منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادَّة له، فهو كسائر الأعلام المحْضَة، التي لا تتضمَّن صفاتٍ تقوم بمسمَّياتِها. والصحيح أنَّه مشتقٌّ. [اسم: الله]

واختُلِفَ في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَةً وإِلاهَةً وأُلوهِيةً؛ بمعنى: عبدَ عِبَادةً.

وقيل:من أَلِهَ - بكسر اللام - يَأْلَهُ - بفتحها - أَلَهًا؛ إذا تحيَّر.

والصحيح الأوَّل، فهو إلهٌ؛ بمعنى مأْلوهٍ؛ أي: معبود. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اللهُ ذُو الإلهيةِ والعُبوديةُ على خلقه أجمعين»[١].

---

(١) روى هذا الأثر ابن جرير في تفسير البسملة، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناد هذا الخبر ضعيف». انظر: «تفسير الطبري»، تحقيق: أحمد شاكر (١/١٢٣).

وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفًا في الأصل، ولكن غَلَبَتْ عليه العَلَمِيَّة، فتجري عليه بقية الأسماء أخبارًا وأوصافًا؛ يقال: الله رحمنٌ رحيمٌ سميعٌ عليمٌ؛ كما يقال: الله الرَّحمن الرَّحيم... إلخ.

[الرحمن الرحيم] و ((**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)): اسمان كريمان من أسمائه الحسنى، دالَّان على اتِّصافه تعالى بصفة الرحمة، وهي صفة حقيقيَّة له سبحانه، على ما يليق بجلاله، ولا يجوز القول بأنَّ المراد بها لازمها؛ كإرادة الإحسان ونحوه؛ كما يزعم المعطلة، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله.

واختُلِفَ في الجمع بينهما:

فقيل: المراد بـ (**الرَّحْمَنِ**) الذي وسعت رحمته كلَّ شيء في الدنيا؛ لأنَّ صيغة (فَعْلان) تدلُّ على الامتلاء والكثرة، و(**الرَّحِيمِ**) الذي يختصُّ برحمته المؤمنين في الآخرة.

وقيل العكس.

وقد ذهب العلَّامة ابن القيم رحمه الله إلى أنَّ (الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة بالذات، و(الرحيم) دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، ولهذا لم يجئ الاسم الرحمن متعدِّيًا في القرآن؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]. ولم يقل: رحمانًا.

وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما.

وروي عن ابن عباس أنَّه قال: ((هما اسمان رقيقان؛ أحدهما أرقُّ من

الآخر))[(١)].

ومنع بعضهم كون (الرحمن) في البسملة نعتًا لاسم الجلالة؛ لأنَّه عَلَمٌ آخر لا يُطلق على غيره، والأعلام لا يُنْعَتُ بها.

والصحيح أنَّه نعتٌ له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية، فـ(الرحمن) اسمه تعالى ووصفه، ولا تُنافي اسميَّتُهُ وصفيَّتَهُ، فمن حيث هو صفةٌ جرى تابعًا على اسم الله، ومن حيثُ هو اسمٌ ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢].

(الحَمْدُ لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا).

---

(١) (موضوع). رواه البيهقي في ((الأسماء والصفات)) (ص٧١)، وهو مسلسَلٌ بالكذابين، فقد رواه محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. قال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٣/٣٧١): (لا يثبت، لأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه والكلبي متروك الحديث وكذلك مقاتل)، وقال السيوطي في ((الإتقان)) (٢/٢٤٢): ((وأوهى طرقه - يعني: تفسير ابن عباس - طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإذا انضمَّ إلى ذلك رواية محمد بن مروان السُّدِّي الصغير؛ فهي سلسلة الكذب)).

وروى البيهقي في ((الجامع لشعب الإيمان)) (٥/٢٩٩) عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا: ((... فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال الله عزَّ وجلَّ: عبدي دعاني باسمين رقيقين؛ أحدهما أرقُّ من الآخر، فالرحيم أرق من الرحمن، وكلاهما رقيقان)). قال البيهقي: ((وقوله: (رقيقان)؛ قيل: هذا تصحيف وقع في الأصل، وإنما هما: (رفيقان)، والرفيق من أسماء الله تعالى)). ومقاتل بن سليمان متهم بالكذب، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

((الحَمْدُ للهِ)): روي[١] عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: ((كلُّ كلامٍ لا يُبْدَأُ فيه بحمد الله والصلاة عليَّ؛ فهو أقطع، أبتر، ممحوق البركة))[٢].

وورد مثل ذلك في البسملة.

ولهذا جمع المؤلف بينهما عملًا بالروايتين، ولا تعارُض بينهما؛ فإنَّ الابتداء قسمان: حقيقي وإضافي، والحمد ضدُّ الذَّمِّ. يُقال: حمدتُ الرجل أحْمَدُهُ حمدًا ومَحْمَدًا ومَحْمَدَةً، فهو محمودٌ وحميدٌ.

[الفرق بين الحمد والشكر]

ويقال: حمَّد الله – بالتشديد –: أثنى عليه المرة بعد الأخرى، وقال: الحمد لله.

والحمد: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياريِّ، نعمةً كانَ أو

(١) (ذكره بصيغة التمريض وهو كذلك، وقد روي بعدة ألفاظ بعضها حسن). (ابن عثيمين)

(٢) رواه بهذا اللفظ الديلمي في ((مسند الفردوس)) (٣/٢٤٦) (٤٧٢٦)، وضعفه: ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/٢٨١)، والسخاوي في ((الأجوبة المرضية)) (١/٢٠٣)، والألباني في ((ضعيف الجامع)) (٤٢١٨)، وأورده بلفظ: ((ممحوق من كل بركة)) في ((السلسلة الضعيفة)) وقال عنه: (موضوع).

ورواه بلفظ: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أقطع) أو قريبًا منه: أحمد في ((المسند)) (٨٧١١)، وأبو داود في ((السنن)) (٤٨٤٠)، وابن ماجه في ((السنن)) (١٨٩٤)، وغيرهم. وحسَّنه جمع من العلماء منهم: النووي في ((الأذكار)) رقم (٣٣٩)، وابن حجر في ((الفتوحات الربانية)) (٣/٢٨٦)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٢/١٢١)، وضعفه آخرون، قال الشيخ ابن باز في ((مجموع فتاوى ومقاولات)) (٢٥/١٣٥): (ضعفه بعض أهل العلم والأقرب أنه من باب الحسن لغيره) .

غيرها؛ يقال: حمدتُ الرجلَ على إنعامه، وحمدتُه على شجاعته[١].

وأمَّا الشكر؛ فعلى النعمة خاصة، ويكون بالقلب واللسان والجوارح؛ قال الشاعر:

أَفَـادَتْكُمُ النَّعْمَـاءُ مِـنِّي ثَلَاثَـةً　　　يَـدِي وَلِسَـانِي وَالضَّـمِيْرَ الـمحَجَّبا

وعلى هذا؛ فبين الحمد والشكر عمومٌ وخصوصٌ من وجه، يجتمعان في الثناء باللسان على النعمة، وينفردُ الحمد في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختياريِّ، وينفردُ الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة.

فالحمد أعمُّ متعلَّقًا، وأخصُّ آلةً، والشكر بالعكس.

[الفرق بين الحمد والمدح]

وأمَّا الفرق بين الحمد والمدح؛ فقد قال ابن القيم: «إنَّ الحمدَ إخبارٌ عن محاسن المحمود، مع حبه، وتعظيمه، فلا بدَّ فيه من اقتران الإرادة بالخير؛ بخلاف المدح؛ فإنَّه إخبار مجرَّدٌ»[٢].

ولذلك كان المدحُ أوسَعَ تناولًا؛ لأنَّه يكون للحيِّ والميِّت وللجماد أيضًا.

و«**ال**» في الحمد للاستغراق؛ ليتناول كل أفراد الحمد المحَقَّقَة

---

(١) (فيه قصور إذ إن الحمد لله يكون على إحسانه وعلى أفعاله الاختيارية وعلى صفاته الذاتية اللازمة ولعل قصده الحمد بالنسبة إلى المخلوق). (ابن عثيمين)

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٩٣).

والـمقَدَّرَة، وقيل: للجنس، ومعناه[١]: «أنَّ الحمد الكامل ثابتٌ لله، وهذا يقتضي ثبوتَ كُلِّ ما يُحْمَدُ عليه من صفات كماله ونعوت جماله؛ إذ مَنْ عَدِمَ صِفات الكمال؛ فليس بمحمود على الإطلاق، ولكن غايته [أنَّه محمودٌ من وجهٍ دون وجهٍ، ولا][٢] يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد؛ إلا مَن حاز صفات الكمال جميعها، [فلو عَدِمَ منها صفة واحدة؛ لنقص من حمده بسببها][٣]».

الرسول في اللغة هو مَن بُعِثَ بالرسالة؛ يقال: أرسله بكذا؛ إذا طلب إليه تأديته وتبليغه. وجمعه: رُسْل – بسكون السين – ورُسُل، بضمها.

[الفرق بين الرسول والنبي]

وفي لسان الشرع: إنسانٌ، ذكرٌ، حرٌّ، أُوحِيَ إليه بشرعٍ، وأُمِرَ بتبليغه. فإن أوحِيَ إليه، ولم يؤمر بالتبليغ؛ فهو نبيٌّ. فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، ولا عكس، فقد يكون نبيًّا غير رسول[٤].

والـمراد بالرسول الـمضاف إلى ضمير الرب هنا مُحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) الكلام من قوله: ((ومعناه...)) لابن القيم من كتابه «مدارج السالكين» (١/٦٤).

(٢) زيادة يقتضيها السياق، سقطت من نقل الشارح لها من كتاب «مدارج السالكين».

(٣) تتمة كلام الحافظ ابن القيم.

(٤) هذا هو القول المشهور عند العلماء، وهناك أقوال أخرى: قيل: إنَّ الرسول الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانًا ومحاورته شفاهًا، والنبيَّ الذي يكون إلهامًا أو منامًا، وقيل: إنَّ الرسول من بُعث بشرع جديد، والنبي من بعث لتقرير شرع من قبله، وقيل: إنَّ النبيَّ من أرسل إلى المؤمنين يجدد رسالة رسولٍ قبله، والرسول من أرسل إلى الكفار بشريعة جديدة، وهذا فرعٌ عن الذي قبله.

و((**الهُدَى**)) في اللغة: البيان والدلالة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[فصلت:١٧]. فإنَّ المعنى: بَيَّنَّا لهم. وكما في قوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣].

والهُدى بهذا المعنى عامٌّ لجميع الناس، ولهذا يوصَفُ به القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

ويوصف به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢].

وقد يأتي الهُدى بمعنى التوفيق والإلهام، فيكون خاصًّا بمَن يشاء الله هدايته؛ قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. ولهذا نفاهُ الله عن رسوله؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦].

والمراد بالهُدى هنا: كلُّ ما جاء به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

والدِّين يأتي لعدة معانٍ:

منها: الجزاء؛ كما في قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة:٤].
ومنهُ قولُهم: كَما يَدِينُ الفَتى يُدَانُ.

ومنها: الخضوع والانقياد؛ يقال: دان له؛ بمعنى: ذلَّ وخضع، ويقال: دانَ اللهَ بكذا، أو كذا؛ بمعنى اتَّخذه دينًا يعبده به.

والمراد بالدِّين هنا: جميع ما أرسل الله به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحكام والشرائع؛ اعتقادية كانت، أم قولية، أم فعلية.

وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: الدين الحق.

والحقُّ: مصدرُ حَقَّ يَحِقُّ إذا ثبت ووجب. فالمراد به: الثابت، الواقع. ويقابله: الباطل الذي لا حقيقة له.

اللام في قوله: ((**لِيُظْهِرَهُ**)) لام التعليل، وهي متعلقة بـ (أرسل)، وهو من الظهور؛ بمعنى: العلوِّ والغلبة؛ أي: ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان.

و(ال) في ((**الدِّينِ**)) للجنس، فيدخل فيه كل دين باطل، وهو ما عدا الإسلام.

والشهيد: فعيلٌ، وهو مبالغةٌ من شهد، وهو إمَّا من الشهادة؛ بمعنى الإخبار والإعلام، أو من الشهادة؛ بمعنى الحضور. والمعنى: وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا مخبرًا بصدق رسوله، أو حاضرًا مطَّلِعًا لا يغيب عنه شيءٌ.

والمعنى الإجمالي لما تقدم أنَّ جميع أوصاف الكمال ثابتةٌ لله على أكمل الوجوه وأتمِّها.

ومما يُحْمَدُ عليه سبحانه نعمه على عباده، التي لا يحصي أحدٌ من الخلق

عدَّها، وأعظمها إرساله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى ودين الحق رحمةً للعالـمين، وبشرى للمتَّقين؛ ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والعز والتمكين والسلطان، وكفى بالله شهيدًا على صدق رسوله، وحقيقة ما جاء به.

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والـمعجزات والبراهين الـمتنوِّعة على أنَّ ما جاء به هو الحق المبين.

((وَأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا)).

[معنى الشهادة] ((**الشهادة**)): الإخبار بالشيء عن علم به، واعتقاد لصحته وثبوته، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان، وواطأ القلبُ عليها اللسان؛ فإنَّ الله قد كَذَّب الـمنافقين في قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، مع أنَّهم قالوا بألسنتهم(١).

و((لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)): هي كلمة التوحيد، التي اتَّفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ بل هي خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره، وقطب رحاه؛ كما قال نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم

---

(١) يعني الشارح تكذيب الله لهم في الآية الأولى من سورة الـمنافقون في قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.